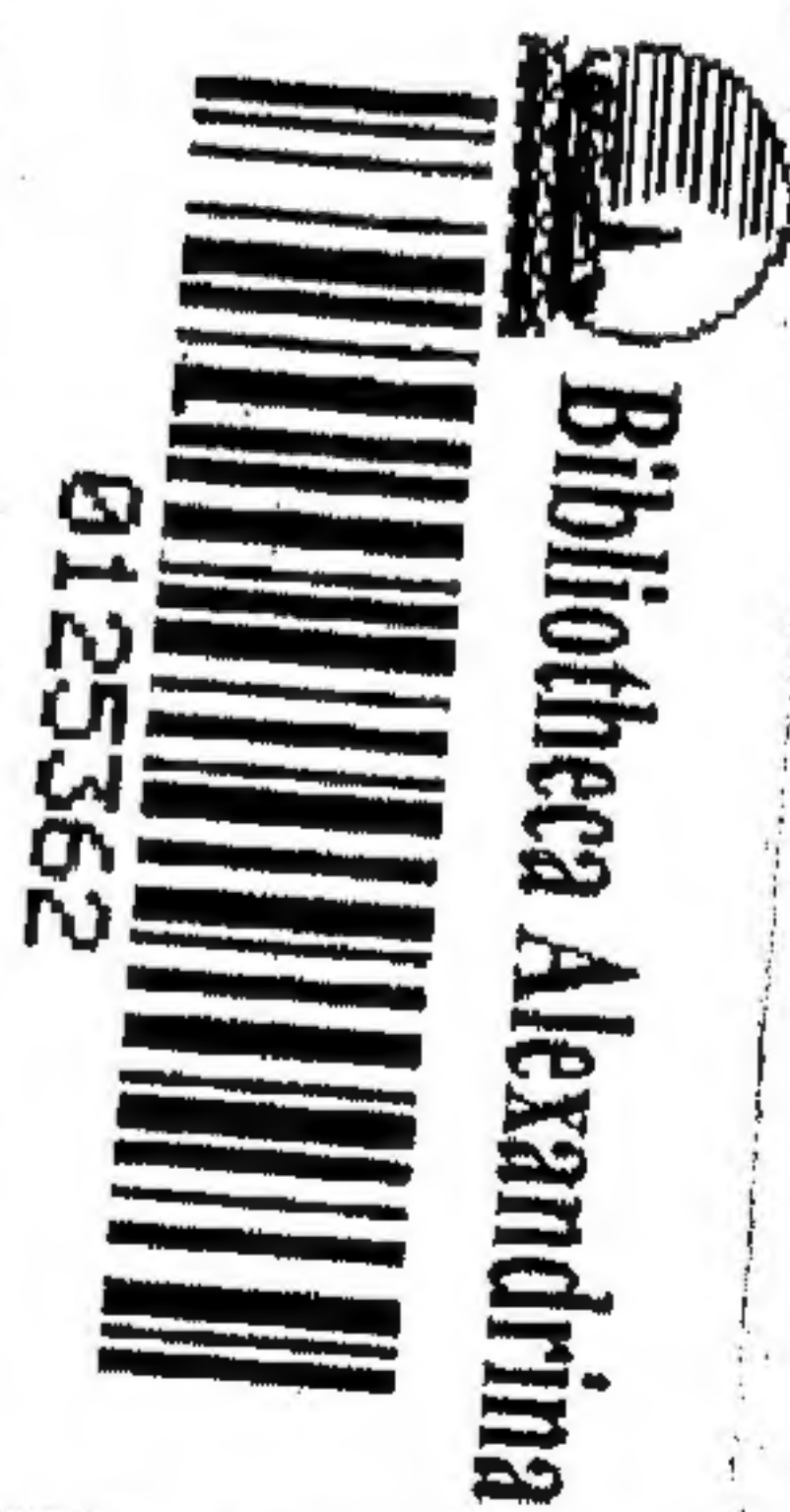


صفحة من تاريخ الخلافة العباسية في ظل دولة المماليك
(الخليفة المستعين بالله العباسي سلطان الديار المصرية)

دكتور حامد زيان خايم

كلية الآداب - جامعة القاهرة

١٩٧٨





صفحة من تاريخ الخلافة العباسية
في ظل دولة المهاليك



مكتبة
مصر

صفحة من تاريخ الخلافة العباسية في ظل دولة المماليك
(الخليفة المستعين بالله العباسي سلطان الديار المصرية)



دكتور حامد زيان غسانم

كلية الآداب - جامعة القاهرة

8179

١٩٧٨

| |
|---------------------------------|
| المكتبة العامة مكتبة الاسكندرية |
| رقم التصنيف : 962.02 |
| غ. ٢٧ |
| رقم التسجيل : ١٦١٨ |

دار الثقافة للطباعة والنشر
بالمساحة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

حفل عصر سلاطين المماليك بمختلف ألوان النشاط السياسي، واستخدم المماليك سواء كانوا سلاطين أم أمراء أساليب سياسية مختلفة للوصول إلى أهدافهم. وكانت مسألة الخلافة من بين تلك الأساليب التي أجادوا استخدامها. وإذا كان كثير من الباحثين يركزون على دبلوماسية السلطان الظاهر بيبرس وتفكيره في اتخاذ الخلافة العباسية — بعد إحيائها في القاهرة — ورقة راجحة لثبوت دعائم حكمه والضرب بها على أيدي ورقاب الخارجين عن طاعته، فإن المماليك البرجية كذلك أحسنوا استخدام هذه اللعبة - الخلافة - في الوصول إلى أهدافهم.

وفي هذه الدراسة حاولت إيضاح دبلوماسية بعض أمراء البرجية وتلاعبهم بالخلافة العباسية للوصول إلى حكم البلاد منقذين ما يمتنع به الحلفاء العباسيون من مركز قوى في نفوس المسلمين بصفة « أمراء

المؤمنين « دون النظر إلى ما يتبع هذا القلاعب من أثر سيء على مركز
الخلافة العباسية نفسها .

وأسأل الله التوفيق .

القاهرة في { ٢١ المحرم ١٣٩٨
{ أول يناير ١٩٧٨

حامد زيان غانم

بسم الله الرحمن الرحيم



سقوط الخلافة العباسية ببغداد

المعروف أن خلفاء العباسيين الذين تولوا الخلافة منذ عام ١٣٢هـ (٧٥٠م) انقسموا إلى قسمين ، قسم أمتاز بالقوة والمهارة في معالجة الأمور ، وهؤلاء هم خلفاء العصر العباس الأول الممتد من عام ١٣٢هـ إلى عام ٢٣٢هـ ، وقسم ثان كان الضعف هو السمة المميزة الغالبة عليه ، وهو ذلك القسم الذي أطلق عليه إسم العصر العباسي الثاني .

وبقدر ما كان لخلفاء العصر العباسي الأول — أمثال أبي العباس السفاح والمنصور والهادي والمهدي والرشيد والمأمون والمعتصم — من قوة ومهابة وعظمة في قلوب المعاصرين سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين ، بقدر ما كان لخلفاء العصر العباسي الثاني من ضعف ومذلة وخنوع لقوة كبار القادة وما أسوا فيه من مهانة من أمثال المستعين والمعتز والمعتد والمقتدر وغيرهم .

والواقع أن ما أمسى فيه خلفاء العصر العباسي الثاني من ضعف

ظاهر ، وما صحبه من تحسكم كبار القادة والوزراء في شخصياتهم أدى إلى زوال تلك الخلافة نهائيا .

وينطبق هذا القول تماما على ما حدث للخليفة المستعصم بالله العباسي (٦٤٠ - ٦٥٦ م) وما آل إليه أمره في النهاية بالقتل على يد القتار لهو خير دليل على ذلك القول . فقد تولى وزارة المستعصم بالله الوزير أبو طالب محمد بن أحمد مؤيد الدين بن الملقى ، وكان كما ذكر أبو المحاسن رافضيا خبيثا حريصا على زوال الدولة العباسية ونقل الخلافة إلى العلويين^(١) .

ويذكر المؤرخون عدة أسباب لحقد ابن الملقى على الخلافة العباسية نشير إليها فيما يلي :

روى ابن شاكر السكيت أن سبب حقد ابن الملقى على الخلافة العباسية هو أنه وقع بينه وبين الدوادار^(٢) خلافاً ، وكان الدوادار سنيا

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج ٧ ص ٤٧ .

(٢) الدوادار هو الشخص الذي يقوم بحمل دواة السلطان أو الخليفة ،

ويقوم بإبلاغ الرسائل عنه وتقديم الشكاوى إليه . (المقرئ : الخطط ج ٣

ص ٦٥) .

مقتاليا ، ووقف ابن الخليفة المستعصم بالله في جانب الدوادار ، فأدى هذا هذا الخلاف الذي انقصر فيه الدوادار على ابن العلقمي إلى حقد ابن العلقمي على الدوادار والخلافة العباسية جميعا ، وأدى إلى « سعيه في دمار الاسلام وخراب بغداد » ، وذلك نتيجة ما أصابه من ضعف بينما قوى شأن الدوادار^(١) ويضعف ابن طباطبا سببا آخر في إشغال نار الحقد في قلب ابن العلقمي وهو أن خواص الخليفة العباسي كرهوا ابن العلقمي وحسدوه ، فوقف ابن العلقمي منهم ومن الخلافة العباسية موقفا معاديا^(٢) ، أما أبو الفدا فيذكر لنا سببا آخر في حقد ابن العلقمي على العباسيين ألا وهو : أنه عندما اشتعلت الفتنة بين السنة والشيعة ببغداد ، أمر أبو بكر ابن الخليفة المستعصم بالله وركن الدين الدوادار ، الجند بنهب منازل الشيعة « وهتكوا النساء وركبوا منهن الفواحش » فعظم ذلك على ابن العلقمي — وكان شيعيا — « وكاتب القتر وأطعمهم في بغداد^(٣) » .

(١) ابن شاكر السكتي : فوات الوفيات ، ٢٠ ص ٣١٢ — ٣١٣ .

(٢) ابن طباطبا : الفخرى في الآداب السلطانية ، ص ٢٤٨ .

(٣) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ص ١٩٣ .

ولم يلبث ابن العلقمي أن كتم حقه هذا في نفسه في حين أظهر للخليفة المستعصم كل حب وود، وأخذ يدبر مؤامرة من أجل الإطاحة بالخلافة العباسية، وساعده في ذلك ضعف الخليفة العباسي المستعصم بالله واستكانته، وبدأ ابن العلقمي في تدبير الفتن بين السنة والشيعة وإشعال نارها ببغداد، حتى كانت حرباً بين الطرفين. وفي نفس الوقت نصح الخليفة المستعصم بضرورة تسريح ما لديه من جند وتوفير الأموال التي تنفق عليهم وإرسالها إلى هولاكو، والإكفاء بمعاضدة القطار ومخالفتهم^(١)، وقد وافقه الخليفة المستعصم على كل هذه الآراء وذلك لأن المستعصم كان كما وصفته المصادر « خلياً من الرأي والتدبير »^(٢).

وفي نفس الوقت كاتب الوزير ابن العلقمي القطار سراً وأرسل اليهم عدة رسل يحثهم فيها على غزو العراق وأخذ بغداد في مقابل أن يكونوا نائبيهم في بغداد، فانتهمز القطار هذه الفرصة ووعدوا الوزير ابن العلقمي بما أراد. وقد أحاط ابن العلقمي تحركاته هذه بالسرية التامة، كما أنه حجب عن الخليفة بحيث جعله لا يعلم شيء عن تحركات القطار. وكان ابن العلقمي يتسلم المكاتبات من كافة الأمراء ويقول الرد عليها بما يشتهي، لذلك لم تصل إلى أسماع الخليفة المستعصم بالله تحذيرات الأمير لؤلؤ صاحب الموصل،

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٤٨ .

(٢) أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ص ١٩٤ .

وتاج الدين بن صلاح نائب الخليفة بإربل، اللذان أرسلتا كتباً إلى الخليفة يحذران فيه من القطار الذين بدأوا في الزحف نحو بغداد، ولكن الخليفة المستعصم كان « لا يتحرك ولا يستيقظ » على قول أبي المحاسن .

وأخيراً عندما تحقق الخليفة المستعصم من زحف القطار نحو بغداد، رأى أن يرسل اليهم رسولا من قبله يعرض عليهم الأموال الكثيرة، كما أرسل مائة رجل من قبله ليكفونوا له ترصدا تحركات القطار .

غير أن القطار لم يلبثوا أن القوا القبض على أولئك الرجال، وواصلوا الزحف نحو العراق . وعندما اقتربوا من بغداد خرج اليهم جيش الخليفة وعلى رأسه ركن الدين الدوادار وكانت الهزيمة من نصيب جيش بغداد، وأخذت سيوفهم، وغرق بعضهم في نهر دجلة، وهرب الباقون (١) .

ثم تقدم هولاكو نحو بغداد وضرب عليها الحصار. ويبدو أن الوزير ابن العلقمي أراد أن يخفي في شوط الخيانة إلى آخره، فبدأ من روع الخليفة المستعصم وأشار عليه بمصانعة القطار . وخرج ابن العلقمي بنفسه لمقابلة القطار وتم اتفاقه معهم « وتوثق لنفسه »، ثم رجع إلى الخليفة ليؤممه بأن هولاكو يرغب في أن يزوج ابنته من ابن الخليفة، ويبقى الخليفة في منصب الخلافة، على أن تكون السلطة له، كما كان الحال مع أجداد

(١) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات، ج ٢ ص ٣١٣، أبو المحاسن :

النجوم الزاهرة، ج ٧ ص ٤٨ — ٤٩ .

الخليفة السابقين وسلاطين السلاجقة . وأشار على الخليفة بقبول هذا العرض حتى يعجنب الحرب مع القطار ، وفي نفس الوقت نصيح ابن العلقمي الخليفة المستعصم بالخروج لمقابلة هولاء . ولم يسم الخليفة المستعصم إلا أن يسم نصائح ابن العلقمي دون أن يدري أنه يذهب إلى حتفه بنفسه ، ووافق المستعصم كذلك على كل الاقتراحات السابقة ، وخرج في جمع من أعيانه وأقاربه وحاشيته .

ولم يخرج هولاء كولا لاستقبال الخليفة ولم يجتمع به ولم يرحب بقدمه ، كما كان يتوقع المستعصم ، وإنما أنزله بخيمة أعدت له ، وفرضت عليه الحراسة . وفي نفس الوقت أشار هولاء كولا على الوزير ابن العلقمي باحضار فقهاء وأعيان بغداد اليه ، فأرسل اليهم ابن العلقمي يخبرهم بضرورة حضور عقد قران ابن الخليفة ، وبالفعل خرج عدد وافر من فقهاء وعلماء وأعيان بغداد متجهين إلى هولاء كولا ، الذي أمر بضرب أعناقهم عندما وصلوا إليه . وهنا بدأت المؤامرة التي دبرها ابن العلقمي وهولاء كولا تنكشف ، وتلا ذلك عبور القطار نهر دجلة حيث دخلت جيوشهم ببغداد لقتلهم بأهلها دون التفريق بين صبي أو امرأة أو شيخ ، أما من بقي من القتل فقد أسر ، واستمر القتل والنهب والسبي ببغداد قرابة ثمانية وثلاثين يوماً ، وبعدها نودي بالأمان ، بعد أن بلغ عدد القتلى ببغداد حوالي ثمانمائة ألف قتيل .

أما الخليفة المستعصم وحاشيته وأهل بيته ، فقد قضى عليهم هولاء كولا

جميعا ، وتضاربت الأقوال في كيفية قتل هولاكو المستعصم (قتل في ٢٠ محرم عام ٦٥٦ هـ / ٢٧ يناير ١٢٥٨ م) فمنهم من قال انه توفي خنقا ، ومنهم من قل غم في بساط ^(١) وعلى هذا النحو انتهت الخلافة العباسية ، وصار العالم الاسلامي ولأول مرة بلا خليفة ^(٢) .

أما ابن العلقمي فتحدث له ما أراد ، حيث إنتهى أمر الخلافة العباسية السفية ، ونولى ابن العلقمي حكم بغداد نيابة عن السلطان هولاكو ، مكافأة له على خيانتة للخليفة العباسي ١١ .

غير أن ابن طباطبا وهو المؤرخ المتوفى عام ٨٧٠ هـ (١٣٠٩ م) ومعنى ذلك أنه كان معاصرا لأحداث تلك الفترة وشاهد عيانها برأ ابن العلقمي من تلك التهم التي لصقت به ومدحه مدحا كثيرا ، واستند ابن طباطبا في دفاعه عن ابن العلقمي على ثقة هولاكو فيه وتسليم بغداد له عقب قتل الخليفة فيقول ابن طباطبا :

(١) أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ص ١٩٤ ،

المقريزي : السلوك ، ج ١ ق ٢ ص ٥٩ ،

أبو المحاسن : النجوم ، ج ٧ ص ٤٧ - ٥٠ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٢٥٩ - ٢٦٠ ،

Muir : The Caliphate its rise, decline and fall, p. 586.

« فإن السلطان هولاكو لما فتح بغداد وقتل الخليفة سلم البلاد إلى الوزير وأحسن إليه وحكمه ، فلو كان قد خامر به أي ابن العلقمي - على الخليفة ، لما وقع الوثوق فيه ^(١) » . غير أن الحجة التي أتى بها ابن طباطبا إنما هي أكبر دليل على خيافته ، فهي تؤكّد لنا حقيقة الاتفاق السابق بين هولاكو من جهة وابن العلقمي من جهة أخرى .

ويبدو أن يد القدر لم تمهل ابن العلقمي كثيراً ليعتصم بحكم بغداد نيابة عن القطار ، إذ لم لم يلبث أن توفى بعد قليل في جمادى الأولى عام ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) وفق رواية ابن طباطبا ^(٢) ، أو في أوائل عام ٦٥٧ هـ (١٢٥٩ م) وفق رواية ابن شاذكر الكنتي ^(٣) « غماً وغيظاً » ، وذلك لأنه عومل معاملة سيئة جداً من جانب القطار ^(٤) ، وقد روى ابن شاذكر الكنتي رواية تفيد ما وقع فيه ابن العلقمي من مذلة وهوان تذكرها فيما يلي :

(١) ابن طباطبا : الفخرى ، ص ٢٤٨ - ٢٤٩ .

(٢) ابن طباطبا : الفخرى ، ص ٢٤٩ .

(٣) ابن شاذكر الكنتي : فوات الوفيات ، ج ٢ ص ٣١٣ .

(٤) ابن شاذكر الكنتي : فوات الوفيات ، ج ٢ ص ٣١٣ ،

ابو المحاسن : النجوم ، ج ٧ ص ٥٠ .

« حكى انه — أي ابن العلقمي — كان جالسا بالديوان ، فدخل عليه بعض القطار ، ممن ليس له وجاهه ، راكبا فرسه ، فسار إلى أن وقف بفرسه على بساط الوزير ، وخاطبه بما أراد ، وبالقرس على البساط ، وأصاب الرشاش ثياب الوزير ، وهو صابر لهذا الهوان ، يظهر قوة النفس ، وأنه بلغ مراده !! » .

وعندما أحس بعض أصحاب ابن العلقمي من أهل بغداد ، بما أصابه من مذلة وهوان قالوا له : يا مولانا أنت فعلت هذا جميعه جميعه ، وحيت الشيعة ، وقد قتل من الأشراف الفاطميين خلقا لا تحصى ، وارتكبت الفواحش مع نسائهم ، فقال : بعد أن قتل الدوادار ومن كان على رأيه لا مبالاة بذلك ! « (١) .

أما عن شخصية ابن العلقمي هذا فقد ذكر عنه المؤرخون انه كان ليديبا كريما وقورا ، محبا للرياسة ، كثير التجميل ، رئيسا متمسكا بقوانين الرياسة ، خبيرا بأدوات السياسة ، يحب أهل الأدب ويقرب أهل العلم ، وذلك لأنه اشتغل في مسهل حياته بالأدب (٢) ، كما سمع الحديث (٣) ،

(١) ابن شاكر الکتبی : فوات الوفيات ، ٢٠ ص ٣١٣ .

(٢) ابن طباطبا : الفخری ، ص ٢٤٨ ،

(٣) ابن شاكر الکتبی : فوات الوفيات ، ٢٠ ص ٣١٤ .

وكان رافضياً خبيثاً^(١). ومن أموره الخبيثة تلك الحيلة التي اتبعها في مراسلة القتار عندما « أخذ رجلاً وحلق رأسه حلقاً بليغاً وكتب ما أراد عليه بالإبر ، ونفض عليه السكر وتركه عنده إلى أن طلع شعره وغطى ما كتب ، فجهزه وقال له : إذا وصلت مرهم بحلق رأسك ودعهم يقرأون ما فيه ، وكان في آخر الكلام « اقطعوا الورقة » فضربت عنقه . وهذا غاية في المكر والخزي »^(٢).

وعلى أية حال فقد انتهت الخلافة العباسية بهتداد نهاية مؤسفة على يد جحافل القتار وبمساعدة ابن العلقمي ، تلك الخلافة التي استمرت قائمة أكثر من أربعة قرون ما بين قوة وضعف ، ولكن حتى في أيام ضعفها كان الخليفة واسمه له وقع كبير في نفوس المسلمين .

الظاهر بيبرس وأحياء الخلافة العباسية بالقاهرة :

أحسن السلطان الظاهر بيبرس (٦٥٨ — ٦٧٦ هـ / ١٢٦٠ — ١٢٧٧ م) عقب انفراده بحكم مصر أنه في حاجة إلى تأييد شرعي للملكه خاصة وأن كثيراً من الأعداء ظلوا متربصين به ، فهؤلاء بقايا ملوك البيت ببلاد الشام وعلى رأسهم الملك الفاضل يوسف صاحب دمشق ، الذي أخذ يعمل من

(١) أبو المحاسن : النجوم ، ص ٧٠ ص ٤٧ .

(٢) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، ص ٣١٥ .

أجل انتزاع حكم مصر من يد المماليك ، وما لبث يذكر المماليك بأصلهم
الوضيع وأنهم ما إلا « مماليك قد مسهم الرق » ، ومن جهة أخرى ظل
القتار الذين اتخذوا بغداد مركزاً لهم ، ظلوا مهددين حكم بيبرس في مصر
تهديداً كبيراً ، ومن جهة ثالثة لم يكن للمماليك قوة شرعية يستندون إليها
في حكم البلاد ، لذلك بحثوا عن قوة تجميهم وتمنحهم حكماً شرعياً للبلاد ،
فذكر السلطان الظاهر بيبرس في إحياء الخلافة العباسية ، لتكون تلك
القوة التي يستند إليها حكمه في مصر بالإضافة إلى ذلك فجامى حتى الخلافة
لا بد وأن يكون هو صاحب السيادة العليا على ما عداه من ملوك وحكام ،
وهذا ما تمناه بيبرس ، ويعطيه أيضاً الحق في الإشراف على الحرمين
الشريفين ، بالإضافة إلى مكانة مرموقة في نظر الحكام المسلمين ^(١) . هذه
الأسباب وغيرها هي التي دفعت السلطان الظاهر بيبرس على الاقدام لإحياء
الخلافة العباسية بالقاهرة ^(٢) .

على أنه من الجدير بالذكر أن السلطان الظاهر بيبرس لم يكن هو
أول من فكر في أن تكون مصر هي مقر الخلافة ، فقد سبقه إلى ذلك
الأمير أحمد بن طولون عندما رحب بالخليفة المعتمد أثناء الخلاف الذي
حدث بين المعتمد وأخيه الموفق طليحة عام ٥٢٦٩ (١١٨٢ م) غير أن مشروع

(١) Demombynes : Muslim Institutions, p 111, 112.

(٢) على إبراهيم حسن : دراسات في عصر المماليك البحرية ، ص ٢٢١ - ٢٢٢

أحمد بن طولون لم يتحقق نتيجة قبض للوفيق على المعتمد والحجر عليه ببغداد،
وتجدد أمل حكام مصر في نقل الخلافة العباسية إلى مصر زمن محمد بن
طنج الأخشيد عندما تأزم الموقف بين المتقى وبين الحمدانيين والأتراك
عام ٨٣٣٣ (٩٤٤ م). كذلك رحب السلطان المظفر قطز بالأمير أبي العباس
أحمد وهو أحد أمراء البيت العباسي الفارين من وجه القتار عقب موقعة
عين جالوت وأشار على أصحابه بأنه « إذا رجعنا إلى مصر أنفذه إلينا
لنعينه إن شاء الله^(١) ». كما أنه يقال أن الملك الناصر يوسف صاحب
دمشق رأى هو الآخر ضرورة إحياء الخلافة العباسية بدمشق حتى يتسنى
له بسط سلطانه على بقية الممالك الإسلامية^(٢).

غير أن السلطان الظاهر بيبرس كان هو أول من نفذ فكرة إحياء
الخلافة العباسية بالقاهرة تنفيذا عمليا . فعندما أرسل إليه بعض أمراء
بلاد الشام يخبروه بوصول رجلا إلى دمشق يسمى أحمد ابن الامام الظاهر
ابن الامام الناصر العباسي ومعه جماعة من عرب خفاجة ، سارع السلطان

(١) ابن أبي الفضائل : النهج السديد ، ص ٩٣ وعن شخصية أبي العباس
أحمد انظر السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣١٧ - ٣١٨ .

(٢) ابن أبي الفضائل . النهج السديد ، ص ٩٢ - ٩٣ ، السيوطي : تاريخ
الخلفاء ، ص ٣١٧ - ٣١٨ .

الظاهر بيبرس بالكتابة إلى هؤلاء الأمراء بضرورة التحفظ على هذا الأمير
العباسي وإرساله فوراً صحبة بعض الحرس إلى مصر .

وعندما إقترب الأمير أحمد العباسي من مصر خرج للاقائه الظاهر
بيبرس بنفسه ومعه الوزير بهاء الدين وقاضي القضاة تاج الدين بن بنت
الأعز وبعض الأمراء ، كذلك خرج في إستقباله اليهود حاملين التوراه
والنصارى حاملين الانجيل وساروا جميعا إلى المطرية لإستقباله . ولم يلبث
أن ترجل الظاهر بيبرس حين تقابل مع الخليفة الجديد ، وعانقه ، وسار
الخليفة وهو لا يس شعار بنى العباس وبصحبة السلطان الظاهر بيبرس
حتى وصلا إلى قلعة الجبل (عام ٦٥٩ هـ ^(١)) .

ولم يلبث السلطان الظاهر بيبرس أن دعى إلى عقد مجلسا عاما حضره
قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز والقضاة والعلماء والأمراء وسائر
أرباب الدولة ليشهدوا بصحة نسب الخليفة الجديد ، وشهد في هذا الاجتماع
العربان الذين حضروا من دمشق صحبة الخليفة الجديد بأن نسبه يتصل
بالعباس بن عبد المطاب ، وأقر بذلك بعض القضاة والفقهاء ، وقبل قاضي

(١) ابن خلدون : العبر ، ج ٣ ص ٥٤٠ ،

المقریزی : السلوك ، ج ١ ق ٢ ص ٤٤٨ ،

Muir : The Caliphato, P 581.

القضاء هذه الشهادة^(١) . فقام السلطان الظاهر بيبرس وبايعه على كتاب الله وسنة رسوله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله وأخذ الأموال بحقها وصرفها في مستحقها ، وتبعه القضاة والعلماء ، ثم أخذت له البيعة بعد ذلك من سائر الناس ، كما نقشت السكة باسمه وأمر بالدعاء له في الخطبة ولقب بالمستنصر بالله ، وبذلك تم إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة^(٢) ، بعد أن ظل العالم الإسلامي بلا خليفة لمدة ثلاث سنوات ونصف^(٣) .

وإذا كان السلطان الظاهر بيبرس قد حقق هدفه في إحياء الخلافة العباسية على نحو ما ذكرنا ، فإنه بقي أن يجنى ثمرة هذا الجهد وهو تقليد الخليفة العباسي له بحكم البلاد . وتم ذلك فعلا في الرابع من شعبان عام ٥٦٥٩ هـ عندما خرج جمع كبير ضم الخليفة والسلطان وقاضى القضاء

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٥ .

يبدو أن أبا الفدا شك في صحة نسب هذا فإشار إلى أنه في هذه السنة وقدم إلى مصر جماعة من العرب ، ومعهم شخص أسود اللون اسمه أحمد ، وزعموا أنه ابن الامام الظاهر بالله ، (المختصر ج ٣ ص ٢١٢) .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٣ ص ٥٤٠ .

(٣) المقرئى : السلوك ، ج ١ ق ٢ ص ٤٥١ .

والقصاة والامراء ، حيث أقيمت أهم خيمة كبيرة بالمطرية وصعد إلى المنبر صاحب ديوان الانشا فخر الدين بن لقمان وقرأ تقليد الخليفة المستنصر بالله للسلطان الظاهر بيبرس ، كما خلع الخليفة المستنصر خلعة السلطنة على السلطان الظاهر بيبرس وهي عبارة عن جبه بنفسجية اللون وعمامة سوداء وطوق من ذهب وسيف ، فلبسها السلطان الظاهر بيبرس ، وإتجه الموكب الذي ضم السلطان ثم الخليفة بينما حمل شهاب الدين التقليد على رأسه فكان موكبا حافلا^(١) .

وإستمر الخليفة المستنصر بالله مقيما بالقاهرة فترة من الوقت حتى إستقر الأمر على ضرورة إرساله إلى بغداد لإحياء الخلافة العباسية بها ،

(١) الفلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٠ ص ١١٢ - ١١٦ ،

المقرئى : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٥٢ - ٤٥٧ ،

ابن لياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ١٠١ .

يشير المقرئى إلى أنه من العادات التى سادت مصر ، أن السلطان من ملوك بنى أيوب ومن قام بعدهم من ملوك الترك — أى المماليك — لابد إذا استقر فى سلطنة ديار مصر أن يلبس خلعة السلطان بظاهر القاهرة ، ويدخل إليها ركبا والوزين بين يديه على فرس ، وهو حامل عهد السلطان الذى كتبته له الخليفة بسلطنة مصر على رأسه وقد أمسكه بيديه وجميع الأمراء ورجال العساكر مشاة بين يديه ، (الخطط ج ٢ ص ١٠٦ بولاق)

كما كانت من قبل^(١) وكان أن تجهز الخليفة للسير إلى بغداد وبصحبة عدد قليل من الفرسان^(٢) ، غير أن القطار لم يلبثوا أن تعقبوا خطواته وقتلوه عام ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م^(٣) .

وعندما علم الظاهر بيبرس بما حدث للخليفة المستنصر تأسف لقتله ، وأخذ في طلب أمير عباسي جديد ليحل محل الخليفة المقتول^(٤) .

(١) ابن خلدون : العبر ، ج ٣ ص ٥٤٠ .

يرى بعض الباحثين أن بيبرس خشي من بقاء الخليفة إلى جواره بالقاهرة ، مما يؤدي إلى التفاف الأهالي حول الخليفة مما يعرض معه منصب بيبرس للخطر لذلك فكر في أبعاده عن القاهرة . انظر :

Arnold : The Caliphate, P 581.

(٢) يشير المقرئ إلى أن الظاهر بيبرس كان سيرسل صحبة الخليفة عدد كبير من الجنود ، لكن أحد اصدقاء بيبرس نصحه ألا يفعل ذلك « فإن الخليفة إذا استقر أمره ببغداد نازعك وأخرجك من مصر » فخشي بيبرس عاقبة ذلك ، وعمد إلى تقليل عدد الجند المصاحبين للخليفة أنظر : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٦٢ .

(٣) ابن خلدون : العبر ، ج ٣ ص ٥٤٠ ،

المقرئ : السلوك ، ج ١ ق ٢ ص ٤٦٢ ،

Muir : The Caliphate, P 581.

(٤) أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ص ٢١٣ ،

ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ١٠٢ .

وكان أن وصل إلى مصر عام ٥٦٦١ هـ / ١٢٦٣ م الأمير أبو العباس أحمد الذي سبق أن أشار السلطان المظفر قطز بضرورة إرساله إلى مصر ، فرحب به بيبرس ترحيبا كبيرا ، وبويع بالخلافة بعد إثبات نسبه ، ولقب بالحاكم بأمر الله أمير المؤمنين . وبذلك أعيدت الخلافة العباسية مرة أخرى بالقاهرة^(١) .

وبعد أن تمت بيعة الخليفة الجديد ، قلد الخليفة الحاكم بأمر الله السلطان الظاهر بيبرس حكم « البلاد والعباد وجعل إليه تدبير الخلق وإقامة قسيمة في القيام بالحق وفوض إليه سائر الأمور^(٢) » .

ويبدو أن الظاهر بيبرس لم يعد يرغب بعد ذلك في إرسال الخليفة إلى بغداد ، وفضل إقامته بالقلمة بالقاهرة « عند حريمه وخدمه وغلماؤه^(٣) » ليكون تحت أنظاره باستمرار ، ولا يستطيع الخروج عن الحدود

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٧٧ ،

ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ١٠٢ .

(٢) المقرئى : المخطط ج ٢ ص ٣٠٢ (طبعة بولاق) ، السلوك ج ١ ق ٢

ص ٤٧٧ — ٤٧٩ .

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ٦١ ،

ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٢ ص ١٠٤ .

سلطات الخليفة العباسي

أما سلطات هذا الخليفة الجديد فلم تعتمد الأمور الدينية دون سواها (٢) خاصة ذكر اسمه في الخطبة على منابر مصر والبلاد التابعة لها، فيما عدا جامع السلطان بالقاهرة فيذكر اسم السلطان فقط في الخطبة. كذلك كان ينقش اسم الخليفة على السكة إلى جوار اسم السلطان، ثم أسقط بعد ذلك اسم الخليفة من السكة وأبقى في الخطبة (٣).

أما أهم أعماله فانهضرت في تقليد السلطان الجديد سلطنته، والقيام بزيارات لتهنئة الأمراء والأعيان والكتّاب والقضاة، وفي ذلك يقول المقرئ عمدة مؤرخي مصر في العصر المملوكي « وصار الناس بغير خليفة إلى سنة تسع وخمسين وستمائة فأقيم في تلك السنة خليفة في مصر، قدم إليها من بغداد لقب المستنصر بالله أحمد بن الظاهر بن الناصر، وسار يريد

(1) Demonalynes : Muslim Institutions, P 111.

(2) Arnold : The caliphate ,P 99 — 103.

(٣) السيوطي : حسن المحاضرة، ص ٢٠٦.

سعيد عاشور : المجتمع المصري ص ١٥٥.

بغداد فحاربته القتار وقتلوه قبل أن تتم له سنة منذ بويج بمصر . فصار من بعده ملوك مصر من الأتراك يقيمون رجلا يسمونه الخليفة ويلقبونه بلقب الخلفاء وليس له أمر ولا نهى ولا نفوذ بل يتردد إلى أبواب الأمراء وأعيان الكتاب والقضاء لتهنئتهم بالأعياد والشهور^(١) .

وكان يحدث في بعض الأحيان عندما يخشى السلطان من الخليفة أو يتسرب إليه الشك من ناحيته ، فإن السلطان لا يتردد في القبض على الخليفة وعزله وسجنه ، وتولية الخلافة لمن يشاء من أبناء البيت العباسي بمصر ، والذي تطمئن إليه خواطره^(٢) .

خلافة المستعين بالله

ومن الملاحظ عبر تاريخ الخلافة العباسية بمصر ، أنه لم يقول أى

(١) عن وظائف وسلطات الخليفة العباسي بمصر أنظر :

على إبراهيم حسن : دراسات في تاريخ المماليك البحرية ص ٢٣٨ — ٢٤٢ ،

Arnold : The Caliphate, P. 97 — 99,

Muir : The Caliphate, P. 593 — 595.

(٢) ابن خلدون : العبر ، ح ٣ ص ٥٤١ ،

سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ١٥٥ .

خليفة عباسى بها أمة سلطة سياسية أو حكم^(١)، سوى ما حدث فى عام ٨١٥هـ (١٤١٢م)، عندما «استقل الإمام المستعين بالله خليفة مصر بأمر الخلافة : من الكتابة على اليهود ومناشير الإقطاعات والتقايد والتواقيع والمكاتبات وغيرها، وأفرد بالدعاء على المنابر وضرب اسمه على الدنانير والدراهم والطرز»، ومعنى ذلك أن الخليفة المستعين تقلد حكم مصر بمفرده وأصبح فى يديه كل السلطات، مما يجعل ذلك الحدث حدثاً غير عادى فى تاريخ مصر زمن المماليك.

وهذا الحدث الغير عادى يجعلنا نتساءل : هل شخصية الخليفة المستعين تختلف عن شخصية من سبقه من خلفاء، الأمر الذى جعله قادراً على تحقيق قدر أو نوع من السلطة لم يحققه من سبقه من خلفاء؟ ثم ماهى الظروف التى أحاطت بقوامة المستعين حكم مصر؟ وهل استقطاع المستعين

(١) يشير القلقشندى إلى حال الخلافة العباسية بمصر فيقول : «أن الذى استقر عليه حال الخلفاء بالديار المصرية أن الخليفة يفوض الأمور العامة إلى السلطان، ويكتب له عنه عهد بالسلطنة ويدعى له قبل السلطان على المنابر إلا فى مصلى السلطان خاصة فى جامع مصلاه بقاعة الجبل المحروسة، ويستبد السلطان بماعدا ذلك : من الولاية والعزل وإقطاع الأقطاعات حتى للخليفة نفسه، ويستأثر بالكتابة فى جميع ذلك»، (صبح الأعشى، ٣٠ ص ٣٧٥).

أن يكبح جماح أمراء المماليك في مصر والشام ويقبض على زمام الأمور
ويستقر في حكم البلاد ؟

في يوم الاثنين الرابع من شعبان عام ٨٠٨ هـ (١٤٠٥ م) إستدعى
السلطان الناصر فرج بن برقوق (٨٠٦ — ٨١٥ / ١٣٩٨ — ١٤١٢ م)
سلطان الديار المصرية أبا الفضل العباس بن الخليفة المتوكل على الله أبي
عبد الله بن محمد « وبأيمه بالخلافة بعد وفاة أبيه المذكور » فتلقب
بالمستعين بالله^(١) ، وأبى التشریف ، وإستقر بداره^(٢) . وقد وصف
المستعين هذا بأنه كان « ديناً فيه خير وإحسان ولين ، حشماً وقوراً
مهاباً^(٣) » .

ولم يكن متوقفاً أن يتمتع الخليفة المستعين بسلطات أكثر من
تلك التي كانت لأسلافه من قبل ، والتي تقرر منذ زمن السلطان الظاهر
بيبرس كما سبق أن أشرنا .

(١) تذكر بعض المصادر أنه تلقب بالمعتصم أنظر : ابن داود الصيرفي :
نزهة النفوس ، ج ٢ ص ٢١٧ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ٤ ق ١ ص ١٤ ،

أبو المحاسن : النجوم ١٣ ج ١ ص ٥١ .

(٣) ابن داود : نزهة النفوس ج ٣ ص ٢٠٩ ،

المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٢٤٢ .

غير أن حال الخليفة المستعين كان أصعب من حال من سبقه من الخلفاء ، وذلك لما وصف به السلطان فرج بن برقوق — سلطان الديار المصرية زمن خلافة المستعين — بأسوأ الأوصاف ، فيجسم المؤرخون على أنه كان « أشأم ملوك الإسلام ، فإنه خرب بسوء تدبيره جميع أراضي مصر وبلاد الشام ^(١) » .

الفتن والاضطرابات زمن السلطان الناصر فرج

وامتلاً حكم الناصر فرج بالاضطرابات الداخلية ^(٢) ، حيث خرج عليه كثير من أمرائه ببلاد الشام ، وكذلك داخل مصر نفسها ، عندما اختفى سبعين يوماً ، قضاها في لهو وطرب واكل وشرب وبسط وانشرع « في حين عهد الأمراء إلى أخيه المنصور عبد العزيز بأمر السلطنة واجتمع حول عهد العزيز عدد كبير من المماليك والأمراء ، مما أدى إلى حدوث عدة اضطرابات وفتن عندما عاد الناصر فرج إلى السلطنة مرة أخرى ، وأخذ

(١) المقرئى : السلوك ، ح ٤ ق ١ ص ٣٢٥ ،

أبو المحاسن : النجوم ، ح ١٣ ص ١٥١ ،

زيان : الازمات الاقتصادية ص ٧٣ .

(٢) عن تدهور الاحوال الاقتصادية زمن الناصر فرج أنظر :

زيان : الازمات الاقتصادية ص ٦٢ — ٧٥ .

يتعقب أمراء وممالك أخيه عبد العزيز بالقتل^(١) .

غير أن الخطر الأكبر الذي تعرض له السلطان فرج بن برقوق جاء من جانب الأميرين « نوروز » نائب طرابلس^(٢) ، و « شيخ » نائب حلب ، اللذين خرجا على السلطان فرج وأخذا في إقطاع البلاد لأتباعهما وفي الاستيلاء على مختلف الحصون والقلاع ببلاد الشام^(٣) .

وقد خشى السلطان الناصر فرج من أطماع كل من نوروز وشيخ ، لذلك قرر الخروج إلى بلاد الشام ومحاربةهما . فجهز مساكركه وحمل معه خزائنه وحرابه وخرج معه الخليفة المستعين بالله أبو الفضل العباسي والقضاة الأربعة ، ونزل بالريدانية في أواخر عام ٨٨٤ (١٤١٢ م) ومنها توجه إلى غزه ، وبعد أن تجمع جيشه بغزه ، أخذ في المسير صوب دمشق .

(١) ابن داود الصيرفي : نزهة النفوس ، ص ٢٠٢ — ٢١٧ .

(٢) كان نوروز متزوجا من أخت السلطان الناصر فرج ، ونظرا للعداوة والكراهية التي كانت في قلب الناصر فرج تجاه نوروز ، أمر أخيه بالانفصال عن زوجها نوروز .

(٣) أبو المحاسن : النجوم ، ص ١٢٠ — ١٢١ ،

العيني : السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ، ص ٢٥٩ ،

ومما يذكر أن السلطان الناصر فرج كان كثير السكر ، شديد القهور ،
سفاكاً للدماء ، قتل عدداً كبيراً من عماليك والده ، مما جعلهم يفرون منه
ويلتجئون إلى عدويه نوروز وشيخ .

ولما توجه السلطان فرج إلى دمشق حيث كان نائبه بها الأمير تغرى بردى
والد المؤرخ جمال الدين أبي المحاسن^(١) — واستشاره فيما يفعله ، فنهاه
تغرى بردى عن القتال وأشار عليه بالعودة إلى القاهرة ، وبث الطمأنينة
في قلوب عساكره ومماليكه الذين أصبحوا في خوف دائم ورعب شديد
من السلطان فرج .

غير أن السلطان فرج لم يأخذ بهذا الرأي ورفض العودة إلى القاهرة
إلا بعد إزال الهزيمة بكل من نوروز وشيخ . ويبدو أن السلطان الناصر
فرج كان واثقاً من قوته وتفوقه على نوروز وشيخ فقال عنهم تغرى بردى
« والله ما صفتهم قدامى إلا كالصيد المجروح »^(٢) .

(١) كان السلطان الناصر فرج متزوجاً من خوند فاطمة ابنة تغرى بردى
وأخت جمال الدين أبي المحاسن .

() أبو المحاسن : النجوم ، ١٣٠ ص ١٣٨ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم ، ١٣٠ ص ١٣٩ .

وفي الجانب الآخر كان كل من نوروز وشيخ ، يخشيان من قوة جيش السلطان فرج ، لذلك حاولا عدم مواجهته وأخذا يتنقلان من مكان إلى آخر ، مما دفع السلطان فرج إلى تتبعهما بجيشه الكبير ، من بلد إلى آخر حتى وصلا إلى اللجون^(١) ، فتبعهم الناصر فرج في يوم الاثنين ثالث عشر المحرم عام ٨١٥هـ (١٤١٢م) « وهو سكران لا يعقل »^(٢) .

وقد بلغ التعب والإعياء بجيش الناصر فرج حداً لا يوصف ، مما دفع كثيراً من أمرائه إلى حثه على عدم الدخول في المعركة إلا بعد إستراحه قصيرة يستعيد فيها جيشه قوته السابقة ، غير أن السلطان فرج أصر على الإسراع في الدخول في المعركة قبل هروب نوروز وشيخ إلى مكان آخر .

ولم تمض ساعات قليلة من بدء المعركة إلا ولحقت الهزيمة بجيش الناصر فرج على عكس ما كان يتوقع ، وقتل عدد كبير من كبار أمرائه ، في حين إتبعه الناصر فرج بعد هزيمته إلى دمشق^(٣) .

-
- (١) بلد بالأردن ، بينه وبين طبرية عشرون ميلاً ، وإلى الرملة أربعون ميلاً . أنظر : ياقوت : معجم البلدان - ٥ ص ١٣ - ١٤ .
- (٢) أبو المحاسن : النجوم - ١٣ ص ١٤٠ .
- (٣) أبو المحاسن : النجوم - ١٣ ص ١٤٠ - ١٤١ .

وثمة عدة حقائق يجب الإشارة إليها كانت سبباً في إنزال الهزيمة
بجيش الناصر فرج :

أولاً : سوء معاملة الناصر فرج لأمرائه ومماليكه ، الأمر الذي
أدى إلى انسحاب معظم هؤلاء الأمراء والمماليك من جيش الناصر فرج
وانضمامهم إلى جيش نوروز وشيخ .

ثانياً : عدم الأخذ بمشورة بعض الأمراء الموالين له ، تلك المشورة
التي كانت توصي بعدم الدخول في معارك ضد الأمراء الخارجيين عليه
والعودة إلى مصر ، وبث الطمأنينة في قلوب جنده وأمرائه حتى يعودوا إلى
ولايتهم له .

ثالثاً : تسرع الناصر فرج في الدخول في المعركة قبل إستعادة جيشه
لقوته ، بعد التعب والإعياء الذي أصابه نتيجة السير المتواصل من
١٣ ذى الحجة عام ٨١٤ هـ منذ خروجه من الريدانية وحتى ١٣ محرم
عام ٨١٥ هـ عندما وصل إلى اللجون .

أما عن الجانب المنتصر وهو جانب نوروز وشيخ ، فقد وقع الخلاف
بينهما ، فأراد كل منهما أن يكون هو « الأمير الكبير » ، لذلك لم
يتفقا على من ستكون له الكلمة العليا . ويتضح لنا ذلك الخلاف عندما

أرادا كتابة رسالة إلى أمراء الديار المصرية ليعلموهم حقيقة الحال وهزيمة
الناصر فرج ، فرفض كل منهما أن يتنازل للآخر بأن يكتب بإسمه ، فأشار
عليهما كاتب السر فتح الله^(١) — وكان بصحبة جيش الناصر الذي خرج
لحاربة نوروز وبعد هزيمة الناصر فرج فضل الهقاء بجانب نوروز وشيخ —
بأن يكتب كل منهما رساله بإسمه ويرسلها إلى الأمراء بمصر ، بالإضافة
إلى أن يكتب الخليفة المستعين هو الآخر رسالة يشرح فيها ما أمسى عليه
الحال من هزيمة الناصر فرج . ومما يذكر أن الأميرين نوروز وشيخ تحفظا
على الخليفة العباسي المستعين بالله وبعض القضاء ورفضوا السماح لهم بالتوجه
إلى دمشق والانضمام إلى جانب الناصر فرج^(٢) .

أما الناصر فرج فقد أخذ في الاستعداد لمواجهة القتال « واستدعى
القضاء والأعيان ووعدهم بكل خير وحثهم على نصرته والقيام معه ،
فانقادوا له ، وأخذ في تدبير أموره ، وتلاحت عساكره شيئا بعد

(١) هو فتح الله بن معتمد بن نفيس الأسرائيلي الدوايني العناني التبريزي ،
رئيس الأطباء وكاتب السر ، ولد بتبريز عام ٧٥٩ هـ ، ثم صحبه أباه إلى القاهرة ،
فتشابه في كفالة عمه ونظر في الطب ، وتولى رئاسته ثم تولى كتابة السرايا عام ٨٠١ هـ
في سلطنة الظاهر برقوق . (وعن تفاصيل حياة وشخصية فتح الله أنظر :
المقريزي : الخطط ٣ ص ٦٢ طبعة بولاق) .

(٢) السخاوي : الذيل على رفع الاصر ، ص ٩١ .

شيء » ، وزاد من قوة الناصر فرج في تلك الفترة إستيلاؤه على أموال
وممالك الأمير تغرى بردى نائب دمشق بعد وفاته ، وقد أنفق الناصر
فرج هذه الأموال على كل الجنود التي انضمت إليه خاصة التركمان ،
مما قوى من شأنه . ولم يكف الناصر فرج بكل هذه الاستعدادات وإنما
أخذ يمارس بعض الأساليب الدبلوماسية ، فأشار على قاضى القضاة جلال
الدين الهلثينى وبقية قضاة مصر ودمشق الذين كانوا معه بدمشق ، وجماعة
من أرباب الدولة ، على المناداة بأن السلطان أمر بإبطال المكوس وإزالة
المظالم ، حتى يجذب إليه قلوب الشاميين ، وبالفعل جاءت هذه السياسة
بنتائجها الطيبة « فعظم ميل الشاميين إليه — أى إلى الناصر فرج —
وتعصبوا له ، وصار غائبهم من حزبه ، وتغنوا على لسانه :

« أنا سلطان ابن سلطان وأنت يا شيخ أمير^(١) » .

وهنا كان على نوروز وشيخ أن يعملوا بسرعة خشية إجتمع كافة
الأمراء في جانب الناصر فرج وتعاطفهم معه بصفته السلطان وابن أستاذهم
السلطان الظاهر برقوق ، في حين أنهما كانا متفرقين كل يعتبر نفسه
الأمير الكبير .

(١) أبو المحاسن : النجوم ، ١٣٠ ص ١٤٢ - ١٤٤ .

تقليد الخليفة المستعين السلطنة

وعندما فشل نوروز وشيخ في الوصول إلى حل لإقناذ موقفهما السيء، استدعيا كاتب السر ففتح الله وسألاه المشورة فيما يعملان، ويروي المقرئ نقلاً عما ذكره له فتح الله كاتب السر، أن فتح الله قال لهما: «ما هكذا يقاتل السلطان» وذكر لهما ما هم فيه من الفرقة، وعدم الإتيان إلى واحد منهما وإن كلا منهما يرى أنه الأمير الكبير، وهذا أمر لا بد فيه من إقامة واحد ترجع الأمور كلها إليه وتصدر عنه وأشار بأن «يقيموا الخليفة يتحدث، وقوموا معه، فإن أحداً لا يتجاسر عليه». فقبل كل من نوروز وشيخ هذه المشورة دون تردد^(١).

وهنا نقف برهة لنناقش الأسباب التي دفعت فتح الله كاتب السر إلى التكبير في تقليد الخليفة العباسي أمور البلاد، وللأسباب التي من أجلها قبل كل من نوروز وشيخ ولاية الخليفة العباسي لأمور البلاد دون تردد.

لقد أحس فتح الله كاتب السر أن الأمور قاربت على الخروج من

(١) المقرئ: الخطط، ٢٠ ص ٦٢،

يد الأميرين نوروز وشيخ بعد إستعادة السلطان الناصر فرج لقوته ، خاصة وأن كلا من نوروز وشيخ مختلفان ، فرأى — فتح الله — الاستعانة بالخليفة العباسي ، وذلك لما يقيم به الخليفة العباسي من تأثير على مختلف طوائف المجتمع بصفته خليفة المسلمين .

لذلك رأى فتح الله أن يصدر الخليفة فتوى شرعية يعلن فيها خلع السلطان الناصر فرج من السلطنة ويوضح في تلك الفتوى أن الناصر فرج خرج عن الدين ووقع في المحرمات ، وبذلك يضمن خروج كافة الأمراء والجنود على الناصر فرج والانقضاء من حوله نتيجة عدم شرعية حكمه ، وفي نفس الوقت يعلن على الملأ بأن الخليفة المستعين هو صاحب هذا الأمر وحاكم البلاد ، فلا يستطيع أحد الخروج عليه . وفي نفس الوقت يعيد الوثام بين كل من نوروز وشيخ ، بعدم تولية أحدهما فتار ثائرة الآخر . وقد قبل كل من نوروز وشيخ هذا الحل ، وذلك حلا مؤقتا لماثار بينهما من خلاف حول أيهما سنبول إليه السلطنة^(١) ؟ واستراح الأثنان لهذا الحل ، حتى يستطيعا من وراء الخليفة أن يقيما هزيمة الناصر فرج ، ثم يستطيع

(١) أبو المحاسن : النجوم ، ج ١٣ ص ١٩٣ .

القوى منهما أن يتخلص من الآخر ويقبض على زمام الأمور فيما بعد ،
خاصة وأن الخليفة كان لا يثقهم بقوة عسكرية ضاربة - يستطيع بها منازلة
أحدهم إذا حاول أن يتصديه عن عرش البلاد .

إذن كانت ولاية الخليفة المستعين للبلاد ولاية مؤقتة ، أراد بها
الأمراء المتصارعون أن تكون وسيلة للتخلص نهائيا من السلطان الناصر
فرج المتحصن بدمشق ، ثم سقاراً يستطيع من ورائه أحد هؤلاء الأمراء
تدبير مؤامراته للانفراد بحكم البلاد .

وقد فهم الخليفة المستعين كل هذه الأمور فهما كاملا ، خاصة وأنه
نشأ وترى بمصر وشاهد وسمع بالمؤامرات والدسائس التي قام بها الأمراء
المماليك للقبض على الأمور ، وعلم علم اليقين أنه من المستحيل أن يترك
هؤلاء الأمراء حكم مصر والشام يخرج من أيديهم إلى أيدي الخلفاء ،
وعلم أيضا أن هذا الاجراء ما هو إلا حيلة للوصول إلى هدف معين هو في
النهاية الوصول إلى الحكم . اذالك رفض رفضا قاطعا ما عرضه عليه كاتب
السرفيتش الله من تولية حكم البلاد . ولكنه أجبر على القبول حينما أوقعوه
في خلاف شديد مع السلطان الناصر فرج حتى يقطعوا عليه طريق الرجعة

ويجعلوه مضطرا لقبول ولاية البلاد وإصدار فتوى بخلق الناصر فرج^(١) .

وقبل أن نمضى فى الحديث عن سياسة الخليفة المستعين سلطان الديار المصرية ، نشير إلى أن ولاية الخليفة المستعين بالله العباسى للبلاد لم تكن هى أول محاولة قام بها الخلفاء العباسيون بالقاهرة لقولى حكم مصر زمن المماليك .

فتشير المصادر التاريخية إلى أن وصول الخليفة المستعين إلى كرسى الحكم بالديار المصرية لم تكن هى أول محاولة قام بها الخلفاء العباسيون لشغل منصب السلطنة ، وإنما حدث زمن والده الخليفة المتوكل وبالتحديد عام ٨٧٧٨ م (١٣٧٦ م) بعد هزيمة السلطان الأشرف شعبان (٧٦٤ — ٨٧٧٨ / ١٣٦٢ — ١٣٧٦ م) بالعقبة وهروبه إلى جهة الديار المصرية أن اتفق الجميع « الأمراء وغيرهم وتوجهوا إلى الخليفة المتوكل على الله وكان أيضا فى صحبة السلطان الملك الأشرف وقالوا له : ياأمير المؤمنين تسلطن ونحن بين يديك » فامتنع الخليفة المتوكل عن قبول السلطنة^(٢) .

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ٨٥ ،

ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ٣٥٨ .

Muir : The Mameluke, P 129.

(٢) ابن خلدون : المعبر ، ج ٥ ص ٤٦٥ ،

وإذا كان الخليفة المتوكل رفض قبول السلطنة التي عرضت عليه عقب هزيمة الأشرف ، إلا أنه وبعد سلطنة الظاهر برقوق (عام ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م) فكر جدياً في الإطاحه بحكم برقوق وأن يتقلد هو حكم البلاد. فيحكي المؤرخون أنه في عام ٧٨٥هـ / ١٣٨٣م وصل إلى مسامع السلطان الظاهر برقوق أن الخليفة المتوكل على الله اتفق مع الأمير قرط بن عمر التركمانى المعزول وإبراهيم العلأى ، وجمع جماعة من الاكراد والتركمان وهم نحو من ثمانمائة فارس ، واتفقوا على الوثوب على السلطان برقوق عندما يقوم باللعب بالكره ويقتلون « ويمكنون الخليفة من الأمر والاستعداد بالملك ^(١) » . ولم يلبث أن استدعى السلطان الظاهر برقوق الخليفة الذى انكر ما نسب إليه ، أما الأميران قرط وإبراهيم

== المقرئى : السلوك - ٣ ق ٩ ص ٢٨٥ ،

أبو المحاسن : النجوم ، ١١ ص ٧٨ — ٧٩ ،

السيوطى : حسن المجاهرة ، ٢ ص ١١٩ .

(١) يرى بعض الباحثين أن الضغط والتضييق الذى لقيه خلفاء العصر المملوكى الأول كان سبباً في محاولة خلفاء العصر المملوكى الثانى للوثوب والتأمر على سلاطين المماليك .

انظر : إبراهيم طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسه ص ٥٣ .

فقد اُعتُرفا بتفاصيل هذه الحادثة ، فعوقب الجميع ، وتم سجن الخليفة بإحدى سجون القلعة^(١) .

وإذا كان الخليفة المتوكل قد أعيد بعد فترة إلى الخلافة ، وشهد وفاة برقوق (عام ٨٠١ م / ١٣٩٨ م) ، وعرض عليه الأمراء ملك مصر بعد زوال دولة برقوق ، فإنه « تبرم من الدخول في الملك وأشار بإعادة حاجي خليفة^(٢) » . ويبدو أن المتوكل بعد هذه المدة الطويلة التي قضها وراء كواليس الحكم خلف السلاطين والأمراء وماشاهده من تكالب الأمراء على السلطنة والمؤامرات والدسائس التي يقومون بها من أجل الوصول إلى مصالحهم الخاصة ، وإيمانه القام بأنه لن يستطيع أحد الأفراد

(١) المقرئى : السلوك - ٣ ق ١ ص ٢٨٠ ،

أبو المحاسن : النجوم ، - ١١ ص ٢٣٢ - ٢٣٥ ،

السيوطى : حسن المحاضرة - ٢ ص ٨٥ .

يشير ابن خلدون إلى سبب طريف أدى إلى فشل حركة الخليفة المتوكل فيقول : « أنه - أى الخليفة - داخل في ذلك بعض ضعاف العقول من أمراء الترك ممن لا يؤبه له » ..

(العبر - ٥ ص ٤٧٥) .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ، - ٢ ص ٨٥ .

أن يقوم بهام الحكم إلا إذا ساندته جند أقوياء من أمراء ومماليك . لذلك
رفض قبول السلطنة والملك عندما عرضت عليه عقب زوال دولة برقوق كما
سبق أن ذكرنا .

ويبدو أن الخليفة المستعين بن الخليفة المتوكل قد شعر بنفس شعور
والده ، لذلك أصر على عدم قبول السلطنة عندما عرضت عليه كما سبق أن
أشرنا ، لكنه أجبر على قبولها^(١) .

وبقبول الخليفة المستعين السلطنة « فرح الأمراء بذلك وبابسود بأجمعهم ،
وقبلوا يده ، وحلفوا له على الطاعة والوفاء بالإيمان المغلظة التي لا يمكن
التوريه فيها » ووقف معظم الأمراء بين يدي الخليفة العباسي على مراتبهم
يؤدون إليه الخدمة وقبلوا بين يديه الأرض كما كانوا يفعلون من قبل مع
سلاطين المماليك^(٢) .

(1) Muir : The Mameluke. P 130 .

(٢) أبو المحاسن : النجوم - ١٣ ص ١٨٧ - ١٩٠ ،
من الجدير بالذكر أن بعض المؤرخين عد المستعين من جملة السلاطين بالديار
المصرية والبعض الآخر عدة من جملة الخلفاء .
أنظر : ابن إياس : بدائع الزهور ، ص ٣٥٧ .

وقد أثمرت السياسة التي اتبعتها كل من نوروز وشيخ في تنصيب الخليفة المستعين حاكما على البلاد والقوى الشرعية بخلع السلطان الناصر فرج ، أثمرت هذه السياسة ثمارها ، فانقسم الأمراء والجنود للوالون للناصر فرج إلى قسمين :

(١) قسم يرى أن مخالفة السلطان الناصر كفر ، لأن الناصر عزل عن السلطنة ، ومن قاتل معه فقد عمى الله ورسوله .

(ب) قسم آخر يرى أن القتال مع السلطان الناصر واجب وأنه باق في السلطنة ، ومن قاتله إنما هو باغ عليه وخارج عن طاعته^(١) .

غير أن أنصار الفريق الأول كانوا أكثر بكثير من أنصار الفريق الثاني ، مما أدى إلى أن « أخذ أمر الملك الناصر في أدبار » ، وانحلت أهل دمشق عن الملك الناصر وخافوا عاقبة مخالفة أمير المؤمنين في الدنيا والآخرة . ويقرر جمال الدين أبو الحاسن وغيره من المؤرخين إلى أنه « لولا الخليفة ما انتظم لهم أمر — أي نوروز وشيخ — اعظم ميل التركمان والمامة للملك الناصر^(٢) » .

(١) أبو الحاسن : النجوم - ١٣ ص ١٤٧ .

(٢) أبو الحاسن : النجوم ، - ١٣ ص ١٤٨ ، ١٩٣ - ١٩٤ ،

المعش : السيف المبتد ، ص ٢٥٩ .

واسكن حدث في تلك الأثناء أن وصلت جموع التركان نجدة للسلطان
الناصر ، مما قوى من شأنه ، وأوقع في قلوب نوروز وشيخ وبقية الأمراء ،
مما دفعهم إلى الاجتماع وإعادة تقرير ولاية الخليفة عليهم حتى يقنوا جميعاً
موقفاً واحداً من وراء هذا الخليفة ، وتشجيعاً للخليفة وحته على الثبات
« حلفوا بأجمعهم يمينا مغلظاً لأمير المؤمنين بأنهم يلزمون طاعته ، ويأتمرون
بأمره ، وأنهم رضوا بأنه الحاكم عليهم ، وأنه يستبد بالأمور من غير
مراجعة أحد ، وأنهم لا يسلطون أحداً غيره طول حياته » (١) . ومن
القسم السابق يبدو لنا أن الخليفة بدأ يتراجع في موقفه نتيجة علمه اليقين
أن هؤلاء الأمراء لم يخفواوه كما عليهم إلا لفترة مؤقتة وحتى تهدأ
الأمور ثم يقومون بعزله وتنصيب الأمير القوى ، لذلك أقسموا له بأنهم
« لا يسلطون أحداً غيره طول حياته » تطميناً له .

ولم يكن أمام الخليفة المستعين إلا طاعة هؤلاء الأمراء ، ومن ثم قبل
هذه الوظيفة المؤقتة .

وأشار الأمراء على الخليفة المستعين بأن يكتب إلى أهل الديار المصرية
ينخبرهم بخلع السلطان الناصر فرج وخروجه على الدين ويعلمهم بنبا توليته

(١) أبو المحاسن : النجوم ، ج ١٣ ص ١٩٣ ،

عرش البلاد^(١) ، كما ضمّن كتابه إزالة المكوس والمظالم من سائر
الأعمال^(٢) ، كما أشاروا أيضاً بأن يكتب الخليفة والقضاة محضراً يحكمون
بمقتضاه بإراقة دم السلطان الناصر فرج لكونه خارجاً عن الدين^(٣) .

ونتيجة عن ذلك أن انفصل عن السلطان الناصر فرج عدد كبير من
إمرائه واتباعه ، مما أدى إلى ضعف موقفه ، بينما اشتد نوروز وشيخ في
محاصرة دمشق ، الأمر الذي دفع السلطان الناصر إلى الالتجاء إلى قلعة
دمشق والتحصن بها ، فما كان من نوروز وشيخ إلا أن شددوا الحصار على

(١) ذكر القلقشندي نص رسالة أرسلها أمراء الديار المصرية إلى الخليفة
المستعين بعد هزيمة الناصر فرج ، رداً على رسالة الخليفة المستعين لهم . (أنظر نص
هذه الرسالة في كتاب صبح الأعشى ج ٨ ص ٣٧٩ — ٣٨٠) .

(٢) وقد أصدر الخليفة المستعين قراراً بعزل جلال الدين البلقيني عن قضاء
الشافعية وذلك لأن البلقيني كان في صحبة الناصر فرج ومقيم معه بدمشق وقد أثار
البلقيني هذا العزل ، وبعد أن تصافى مع المؤيد شيخ عمل جاهداً على الإطاحة
بمخلافة المستعين . أنظر :

أبو المحاسن : النجوم ج ١٣ ص ٩٢ ،

السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٦ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم ج ١٣ ص ١٩٣ ،

السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ٨٦ .

قلعة دمشق ، وفي تلك الأثناء تسرب معظم جنود وأمراء الناصر فرج وانضموا إلى جانب الخليفة المستعين ونوروز وشيخ^(١) . وأخيرا اضطر الناصر فرج إلى النزول من قلعة دمشق وتسليم نفسه إلى الأمير شيخ . فاجتمع الخليفة بالأمراء والفقهاء والعلماء المصريين والشاميين وقرروا جميعا إراقة دم الملك الناصر فرج ، ونفذ حكم الإعدام في شخص الناصر فرج في ليلة السبت السادس عشر من صفر عام ٨١٥ هـ ، على الرغم من معارضة الأمير شيخ في قتل الناصر فرج^(٢) .

وإذا كان الخوف من السلطان الناصر فرج هو الذي دفع كبار الأمراء ومن بينهم نوروز وشيخ إلى المناداة بسلطة الخليفة المستعين ، فإن التخلص من السلطان الناصر على النحو السابق أزال ذلك الخوف ، ولكن الأمور لم تهدأ بعد ، إذ ظل الخلاف بين كل من نوروز وشيخ قائما ، فكل منهما يريد أن ينهز الفرصة للانقضاض على السلطنة « والناس يترقبون وقوع الفتنة » ، ونتيجة تخوف الأمراء من بعضهم البعض أبقى على وجود الخليفة

-
- (١) ساعد على ذلك الأمان الذي أصدره الخليفة المستعين لكل الموالين للناصر فرج وهو « من حضر إلى أمير المؤمنين خليفة سيد المرسلين فهو آمن » .
أنظر : السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٦ .
- (٢) يبدو أن السبب الذي دفع شيخ في معارضة سفك دم الناصر فرج هو أنه أراد استغلاله فيما بعد لتهديد نوروز إذا حاول الانفراد بالحكم .

العباسي بالسلطنة واتفق كل من نوروز وشيخ على أن يسيرا إلى مصر
صحبة الخليفة المستعين بالله ويكونا في خدمته ، فيكون الأمير شيخ أميرا
كبيرا ويشغل وظيفة أتابك العسكر بالديار المصرية ، ويتولى نوروز رأس
نوبة الأمراء ، على أن يكون اقطاع كل منهما بالتساوي .

وأثناء وجود الخليفة بدمشق بعد التخلص من السلطان الناصر فرج
كان نوروز وشيخ يجلسان إلى جواره ، فيجلس شيخ عن يمينه بينما يجلس
نوروز عن يساره .

وأخيرا اتفق الأميران الكبيران — نوروز وشيخ — على أن يستقر
نوروز بالشام وفوض له الخليفة المستعين « كقالة الشام جميعه : دمشق
وحلب وطرابلس وحماه وصفد وغزه ، وجعل له أن يعين الأمريات
والأقطاعات لمن يريد ، وأن يولى نواب القلاع الشامية والسواحل وغيرها
من أراد من غير مراجعة في ذلك ، غير أنه يطالع الخليفة بمن يستقر به في
شيء من ذلك ليجهز اليه تشريفا » . وهكذا خرج حكم بلاد الشام عن يد
الخليفة « السلطان » المستعين ، وأصبح في يد نوروز . ولم يعد للخليفة أي
حق سوى تشريفه بمنح الخلع الشريفة والعقائد لمن يختاره وبقرة نوروز في
حكم مختلف بلاد وقرى الشام . في حين استقر الرأي على أن يتوجه الأمير
شيخ إلى مصر صحبة الخليفة ، ويكون أتابك العساكر بها ^(١) .

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ١٣ ص ٢٠٠ — ٢٠١ ،

وهكذا اقتسم الأميران الكبيران حكم البلاد، فكان الشام من نصيب نوروز في حين كانت مصر من نصيب شيخ، لكن إذا كان نوروز قد قدم ببلاد الشام، فإنه أخذ يمارس فيها سلطاته بدون منازع حيث لا يوجد بها سلطان ولا خليفة، أما بالنسبة للأمير شيخ، فإن الديار المصرية كانت هي مقر الحكم والسلطان، لذلك كان على شيخ أن يعمل إذا أراد أن يتفرد هو الآخر بحكم الديار المصرية، أن يعمل على تقويض نفوذ الخليفة العباسي سلطان البلاد.

وأخذ الخليفة والأمير شيخ وبقية الأمراء والجنود في الاستعداد للعودة إلى الديار المصرية، وأرسل إلى أهل الديار المصرية يعلمهم بقرب وصوله، كما أصدر أمراً بإطلاق سراح الأمراء المسجونين بالاسكندرية.

وفي ظاهر الأمر بدا الخليفة وكأنه الحاكم الفعلي للبلاد في تلك الفترة، إذ أخذت رسائله وكتبه تخرج وفي مقدمتها هذه العبارة: من عبد الله ووليه الامام المستمين بالله، وخليفة رب العالمين، وابن عم سيد المرسلين، المفترض طاعته على الخلق أجمعين، أعز الله ببقائه الدين «^(١) كما ضربت

== ابن اياس: بدائع الزهور، ج ١ ص ٣٥٨.

Muir: The Mameluke, p 130.

(١) المقرئى: السلوك ج ٤ ق ١ ص ٢٣٠ — ٢٣١،

أبو المحاسن: النجوم ج ١٣ ص ٢٠١،

السيوطى: حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٦.

السكة بإسمه وحده ، ودعى له بمفرده على المنابر ، كما كانت علامته سارية على التقليد والتوقيع والمكاتبات (١) .

وفي يوم السبت الثامن عشر من شهر ربيع الأول عام ٨١٥ هـ (١٤١٢ م) بدأ الخليفة والأمير شيخ وبقية الأمراء والجند في المسير جنوبا تجاه مصر .

ومن الجدير بالذكر أن أهل الديار المصرية فرحوا فرحا زائدا بتولية الخليفة المستعين حكم الديار المصرية ، ظنا منهم أنهم بذلك قد تخلصوا نهائيا من حكم المماليك بحرية كانوا أم جراكسة ، وخرجوا جميعا لاستقبال الخليفة المستعين ، وتلقاه « الناس » بقطيا والصالحية وبليبس » وحصل للناس من الفرح بذلك ما لا مزيد عليه » ، كما كتبت عدة قصائد في مدح المستعين والخلفاء منها (٢) :

(١) وهذا على العكس من حال وسلطات الخليفة المستعين قبل توليه السلطنة ، إذ كان مفقود السلطة مثله مثل من سبقه من الخلفاء ليس له سوى العهد إلى السلطان بالحكم والدعاء له على المنابر قبل السلطان .

(أنظر القلقشندي : صبح الاعشى ج ٣ ص ٢٦٣) .

(٢) السيوطي : حسن المحاضرة : ج ٢ ص ٨٦ .

الملك أصبح ثابت الأساس
بالمستعدين العادل العباسي
رجعت مكانة آل عم المصطفى
لحلمها من بعد طول تناس

الأمير شيخ يحجر على الخليفة المستعين سلطان الديار المصرية

وبوصول الخليفة المستعين العباسي إلى الديار المصرية في يوم الثلاثاء
الثاني من شهر ربيع الآخر عام ٨١٥ هـ ، تبدأ مرحلة ثانية من مراحل
حكمه ، فإذا كانت الفترة الممتدة منذ ولايته الحكم أثناء محاربة الناصر
فرج وحتى رحيله إلى الديار المصرية في يوم السبت الثامن عشر من شهر
ربيع الأول عام ٨١٥ هـ تمثل المرحلة الأولى من حكمه ، والتي حرص أمثاتها
كافة الأمراء على حفظ شخصيته وهيئته ، وحرصوا أيضا على عدم المساس
به والمظاهر باحترامه والقيام بالخدمة بين يديه ، وإطاعة أوامره . ويعود
ذلك كله إلى الظروف التي أحاطت بالأميرين الكبيرين نوروز وشيخ ،
ومراعتهما ضد السلطان الناصر فرج ، ثم تخوفهما من بعضهما البعض .

أما وبعد التخلص من الناصر فرج واتفاقهما على تقسيم البلاد فيما بينهم
وأن يكون نوروز بالشام وشيخ بمصر ، بدأ الأمر يختلف في علاقاتهما مع

الخليفة العباسي المستعين فقد أحس كلاهما أنه في غير حاجة للخليفة العباسي، وأخذ كل منهما يعمل لتوطيد نفوذه ومركزه. وإذا كان الأمير نوروز قد انفرد بحكم بلاد الشام وأصبح من حقه حكم بلاد الشام حكماً كاملاً لا يراجع الخليفة فيه إلا « بمن يستقر في شيء » ليجهز — أي الخليفة إليه تشريفاً ، فإن الأمر اختلف بالنسبة لوضع الأمير شيخ بمصر الذي كان يجواره الخليفة. وكان على الأمير شيخ هو الآخر أن يبذل كل ما في وسعه من أجل الانفراد بالحكم.

وبعد وصول الخليفة المستعين إلى الديار المصرية في يوم الثلاثاء الثاني من شهر ربيع الثاني عام ٨١٥ هـ، شق الخليفة القاهرة وصعد إلى القلعة ونزل بالقصر « على عادة السلاطين » ويبدو أن الأمير شيخ كان يتوقع أن الخليفة إن يذهب إلى القصر وإنما سيقوجه إلى داره بالقرب من المشهد النفيسي. ومن ثم بدأ يحس بعدم ارتياح لقصر الخليفة وبدأ يشك في أمره، ولذلك فكر في العمل بسرعة من أجل الحد من نفوذ الخليفة حتى لا يقوى شأنه ويمثل خطراً يهدد الأمير شيخ نفسه.

لذلك أمر الأمير شيخ كافة الأمراء وأرباب الدولة ألا يصعدوا إلى الخليفة وإنما يترددوا على باب السلسلة حيث كان يقيم الأمير شيخ، وأبطل المواكب السلطانية التي كانت تقام عادة للسلاطين، وقبض على الأمراء

الذين شك في إخلاصهم له ، وأخذ في القضييق على الخليفة المستعين ومنعه من مباشرة مهامه في التولية والعزل ، ومارس على الخليفة نوعاً من الضغط من أجل تقليد جميع أمور البلاد المصرية ، وأخيراً وبعد أن خشي الخليفة المستعين من عائلة الأمير شيخ ، رضع لكل مطالبة ، وفي الموكب الكبير الذي عقد بالقصر السلطاني وحضره الأمير شيخ وسائر الأمراء « خلع الخليفة على الأمير شيخ بإستقراره أتابك القساكر بالديار المصرية ٠٠٠ وأنه يولى ويعزل من غير مراجعة » .

وبمقتضى هذا التقليد الذي منحه الخليفة للأمير شيخ ، خرج الحكم عن يد الخليفة إلى يد الأمير شيخ ، الذي أخذ يمارس سلطاته وتلقب بلقب « نظام الملك ^(١) » .

ولم يانم الأمير شيخ بما حصل عليه ، وإنما أقام الأمير جقمق الأرغون شادى دواداراً للخليفة ، وكان جقمق هذا تابداً مخلصاً للأمير شيخ ، وبذلك ضمن شيخ عدم تصرف الخليفة في أى أمر إلا بعد علمه به عن طريق جقمق الدوادار ^(٢) .

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ، ص ٨٩ ،

العيني : السيف المهند ص ٣٠٣ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم ، ص ١٣ ، ٢٠٥ - ٢٠٦ .

وعلى هذا النحو قبض الأمير شيخ على كافة الأمور وصار للخليفة
على رأى جمال الدين أبى المحاسن « الإسم فى السلطنة لاغير ، وما عدا
ذلك متعلق بالأمير شيخ^(١) » .

وإذا كان الأمير شيخ قد استطاع التغلب فى سهولة على الخليفة
العباسى ويستولى على كل السلطات ، فإن عدوه الأول كان مقيماً بالشام
وهو الأمير نوروز ، الذى أخذ يرقب تطورات الموقف فى مصر فى قلق
بالغ ، وقد اعتمد نوروز على أحد الأمراء الكبار المقيمين بمصر ، وهو
الأمير بكتمر جاق ، فى الحد من نفوذ الأمير شيخ ، وكان الأمير نفسه
يخشى من بكتمر جاق ، لكن حدث فى شهر جمادى الآخرة عام ٨١٥ هـ أن
توفى الأمير بكتمر جاق ، مما أتاح الفرصة للأمير شيخ لتنفيذ بقية مخططة
فى الوصول إلى عرش البلاد .

(١) أبو المحاسن : النجوم ١٣ ص ٢٠٦ .

ويشير ابن إياس إلى أن الخليفة المستعين كان فى مدة سلطنته مع الاتابكي
شيخ فى غاية الضئيل ليس له فى السلطنة غير مجرد الاسم فقط والأمر كله للاتابكي
شيخ (بدائع الزهور ١ ص ٣٥٨) .

خلع الخليفة المستعين من السلطنة

وبعد أقل من شهرين من وفاة الأمير بكتمر جلق جم الأمير شيخ أمراء الديار المصرية وحدثهم في أمر السلطنة ، فوافقوا على سلطنته^(١) . ومن طريف ما يذكر أنه وأثناء انعقاد الموكب على عادته بالأسطول السلطاني عند الأمير شيخ ، اجتمع القضاة الأربعة ومعهم فتح الله كاتب السر الذي قال لهم : « أن الأحوال ضائعه ولم يعهد أهل نواحي مصر اسم خليفة ، ولا تستقيم الأمور إلا بأن يقوم سلطان على العادة^(٢) » .

فاستقر رأى الجميع على سلطنة الأمير شيخ و « خلع الخليفة المستعين بالله العباسي من السلطنة » في يوم الاثنين أول شعبان عام ٨١٥ هـ^(٣) .

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ٣٥٨ .

(٢) يشير ابن إياس إلى أن المؤيد شيخ جمع القضاة الأربعة وسائر الأمراء وكتب محضرا بأن عربان الشرقية والغربية قد خرجوا عن الطاعة وكثر الفساد في البر والبحر واضطربت الأحوال وأن الوقت محتاج لإقامة سلطان تركي له سطوة يجمع أهل الفساد وتنصاح الأحوال على يده . انظر : بدائع الزهور ، ج ١ ص ٣٥٨ .

(٣) المقرئ : الخطط ج ٢ ص ٦٢ (بولاق) ،

ومن الجدير بالذكر أن فتح الله كاتب السر هذا ، كان هو صاحب فكرة
سلطنة الخليفة المستعين^(١) ١١ .

وعندما صعد الأمراء إلى الخليفة ليعلموه صورة الحال يأخذوا موافقته
علىبيعة السلطان شيخ الذي تلقب بالمؤيد ، تردد كثيرا ثم وافق بشرط
أن ينزل من القلعة ويستقر بداره ، وكأنه خشى على نفسه من إغتيال شيخ
له ، غير أن شيخ استبقاه بالقلعة تحت يده^(٢) ، إلى أن تسعقر له الأمور ،
وحتى لا يشكل الخليفة المستعين له أي خطر^(٣) .

ثم قرر السلطان المؤيد شيخ بعد ذلك خام الخليفة المستعين من الخلافة
وولى مكانه أخاه داود الذي تلقب بالمعتضد^(٤) .

= أبو المحاسن : النجوم ١٣ ص ٢٠٦ - ٢٠٧ ،

ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٢ ص ٣ .

(١) المقرئزي : الخطط ج ٢ ص ٦٢ (بولاق) ،

العيني : السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ، ص ٣١١ .

(٢) العيني : السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ، ص ٣١٤ .

(٣) المقرئزي : السلوك ، ج ٤ ق ١ ص ٢٤٤ ،

السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ٨٩ .

(٤) المقرئزي : السلوك ج ٤ ق ١ ص ٢٤٤ ، ٢٧٣ ،

العيني : السيف المهند ص ٣٢١ .

=

وجدير بالذكر أن الأمير نوروز بالشام لم يعترف بشرعية سلطنة المؤيد شيخ ، وإستمر متمسكا بشرعية حكم الخليفة المستعين ، وإستمر يخطب له على المنابر بدمشق كما كانت العملة تسك باسمه ، وذلك نتيجة تخوفه الشديد من سطوة الأمير شيخ^(١) وأخذ نوروز يعد العدة لمحاربة شيخ ، غير أن نوروز لم يلبث أن قتل عام ٨١٧ هـ (١٤١٤ م) دون أن يحقق شيئا مما أراد^(٢) .

ومن المفيد أن نذكر أنه لو تحقق انتصار الأمير نوروز على شيخ ، لما استبقى الخليفة العباسي في الحكم ، ولعل به مثله فعل المؤيد شيخ !!

وهكذا تنقضى تلك الصفحة من صفحات تاريخ الخلافة العباسية

== ومن الطريف أن الذي ساعد الأمير شيخ على عزل الخليفة المستعين من الخلافة هو القاضي جلال الدين البلقيني الذي رتب دعوى شرعية حكم بمقتضاها بخلع المستعين من الخلافة ، والواقع أن البلقيني إنما أراد الانتقام من الخليفة المستعين الذي سبق وأن عزله عن قضاء الشافعية عقب تولية الحكم عام ٨١٥ هـ .
(انظر : حسن المحاضرة ص ٢٨٦ ، ٨٩ - ٩٠ ، ابن إياس : بدائع الزهور : ١ ص ٣٥٨) .

(١) المقرئ : السلوك ح ٤ ق ١ ص ٢٥٥ ،

العيني : السيف المهند ص ٣٢٦ .

(٢) العيني : السيف المهند ص ٣١٣ ،

ابن إياس : بدائع الزهور ح ٢ ص ٣ .

بالقاهرة في ظل حكم المماليك ، الذين اتخذوا من الخلافة والخليفة ستاراً يخفون وراءه نواياهم الحقيقية في الوصول إلى مراكز الحكم والسيادة^(١) .
في حين أن الديار المصرية ذاتها استغادت كثيراً من وجود الخلافة المماليكية بها ولا أدل على ذلك من تهريج السيوطي وهو أحد مؤرخي وعلماء مصر في العصر المملوكي بقوله : « واعلم أن مصر من حين صارت دار الخلافة عظم أمرها ، وكثرت شعائر الاسلام فيها ، وعانت فيها البدعة ، وعفت منها البدعة ، وصارت محل سكن العلماء ، ومحيط رجال الفضلاء ، وهذا سر من أسرار الله وأودعه في الخلافة النبوية حيث ما كانت يكون معها الايمان والكتاب^(٢) » .

(1) Demombynes : Muslim Institutions, P 112 .

(٢) السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ٩٢ .

المصادر والمراجع

- إبراهيم طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة
القاهرة ١٩٦٠ .
- ابن أبي الفضايل : (المفضل ت ٦٧٢ هـ) النهج السديد والذر القريب
فيما بعد تاريخ ابن العميد باريس ١٩٤٠ .
- ابن إلياس : (أبو البركات محمد بن أحمد ت ٩٣٠ هـ) بدائع
الزهور بولاق ١٨٨٦ .
- ابن خلدون : (عبد الرحمن بن محمد ت ٨٠٨ هـ) تاريخ ابن خلدون
أو المعبر وديوان المبتدأ والخبر القاهرة ١٩٧١ .
- ابن داود : (علي بن داود الصيرفي ت ٩٠٠ هـ) نزعة النفوس
والأبدان القاهرة ١٩٧١ .
- ابن شاكر : (فخر الدين محمد أحمد السكيت ت ٧٦٤ هـ) فوات
الوفيات القاهرة ١٩٥١ .
- ابن طباطبائي : (محمد بن علي ت ٧٠٩ هـ) الفخري في الآداب السلطانية
القاهرة ١٩٢٧ .

- أبو الفدا : (عماد الدين إسماعيل ٨٧٣٢) المختصر في أخبار البشر
القاهرة ١٣٢٥ هـ .
- أبو المحاسن : (جمال الدين يوسف بن تغري بردي ت ٨٨٧٤) النجوم
الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة القاهرة ١٩٧٢ .
- أرنولد : Arnold(thomas): The Calipate
oxford, 1924
- ديمومبينز : Demombynes (Maurice): Muslim Institutions,
London, 1968.
- زيان : الأزمات الاقتصادية والأويثة في مصر عصر سلاطين
المماليك القاهرة ١٩٧٦ .
- السخاوي : (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠١ هـ) الذيل على
رفع الإصر القاهرة ١٩٦٦ .
- سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك
القاهرة ١٩٦٢ .
- السيوطي : (جلال الدين عبد الرحمن ٩١١ هـ) حسن المحاضرة في
تاريخ مصر والقاهرة القاهرة ١٣٨٧ هـ
- تاريخ الخلفاء دمشق ١٩٣٢ م
- علي إبراهيم حسن : دراسات في عصر المماليك البحرية
القاهرة ١٩٤٨ .
- العيني : (بدر الدين محمود ت ٨٥٥ هـ) السيف المهند في سيرة
الملك المؤيد القاهرة ١٩٦٧

... القلقشندي : (أبو العباس أحمد ت ٨٢١ هـ) صبح الأعشى في صناعة

الانشاء طبعة دار الكتب المصرية

... المقرئزي : (تقي الدين أحمد بن علي ت ٨٤٥ هـ) السلوك لمعرفة

دول الملوك القاهرة ١٩٧٠

للمواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار

بولاقي ١٢٧٠ هـ .

Muir (William) : The Caliphate its rise and fall :

... ميور

oxford, 1891.

: (شهاب الدين أبي عبد الله ت ٦٢٦ هـ) معجم البلدان

... ياقوت

بيروت ١٩٦٨ .



الفهرس

| الصفحة | الموضوع |
|--------|--|
| | مقدمة |
| ٥ | سقوط الخلافة العباسية ببغداد |
| ٩ | الظاهر بيبرس و احياء الخلافة العباسية بالقاهرة |
| ١٨ | سلطات الخليفة العباسى |
| ٢٦ | خلافة المستعين بالله |
| ٢٧ | الفقن والاضطرابات زمن السلطان الناصر فرج |
| ٣٠ | تقليد الخليفة المستعين السلطنة |
| ٣٧ | الأمير شيخ يحجر على الخليفة المستعين |
| ٥١ | سلطان الديار المصرية |
| ٥٥ | خلف الخليفة المستعين من السلطنة |
| ٥٩ | المصادر والمراجع |



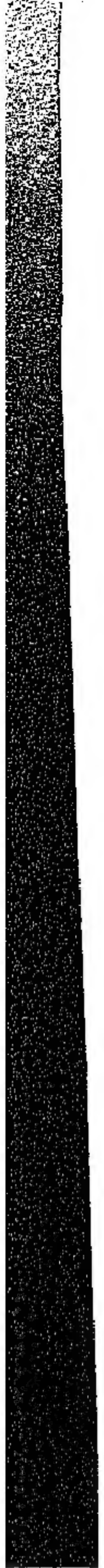
Arab League
League of Arab States

رقم الايداع بدار الكتب

٢٥٩١ / ١٩٧٨ م

الترقيم الدولي ٤ - ٤١ - ٧٢٥٧ - ٩٧٧

مطبعة دار نشر الثقافة
٩٦٠٧٦



2.02

غان
ص